الأبعاد الحضارية لمفهوم الأخلاق في النموذج المعرفي الإسلامي

CIVILISED DIMENSIONS OF THE CONCEPT OF ETHICS IN THE ISLAMIC COGNITIVE MODULE

د. ربيع الحمداوي

أستاذ باحث في الدراسات الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة السلطان مولاي سليمان، بني ملال، المملكة المغربية

Mr. RABII EL HAMDAOUI

Research Professor in Islamic Studies Faculty of Arts and Humanities, Sultan Moulay Slimane University, Beni Mellal, Morocco

elhamdaouirabii@gmail.com

00212674392714

الباحث

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

الملخص

إن الحديث عن الأخلاق في النموذج المعرفي للحضارة الإسلامية هو حديث عن مقومات جمالية روحية للإسلام، وعن مقامات معلومة ميزت هذا النموذج المعرفي، حيث أدرك علماء المسلمين المكانة الكبيرة للمبادئ الأخلاقية، ففي التشريع، وفي الحرب، وفي السلم، وفي الاقتصاد، وفي الأسرة وفي مجالات العلوم المختلفة، روعيت المبادئ الأخلاقية تشريعا وتطبيقا، وبلغت في ذلك شأوا ساميا بعيدا لم تبلغه حضارة أخرى.

وبهذا فحاجة الحضارة الإنسانية والعلوم الإسلامية لحضور البعد القيمي الأخلاقي في مناهجها ليست وليدة فترة تاريخية، أو حاجة ظرفية، وإنما هي ضرورة منهجية اقتضاها موقع القيم الأخلاقية في الشريعة الإسلامية.

الكلمات المفتاحية: الحضارة، الأخلاق، النموذج المعرفي، الإسلام.

Abstract

The talk about ethics from the Islamic perspective of civilization,is a talk about the beauty and spirituality of Islam,in addition to the distinct information contained in Islam that makes the Islamic cognitive module unique,this which is as a result of the fact that, Muslim clerics place emphasis on ethical principles (in their teachings).

In terms of legislations, warfare, peace, economics, family, and various aspects of life, ethical principles are been put into consideration, be it the law-making process of these areas, or their application process, and by this, ethical principles have really gone a long way in the Islamic

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

civilization unlike any other civilization.

For this , it's very important to emphasize that, human civilization as well as Islamic fields of study need to adapt moral and ethical dimensions (continuously) in it's methodologies as this matter isn't attributed to a historic period of time nor regarded as a tool that has come to deal with specific temporary situations, but should be rather regarded as a very essential methodology that Sharia law has enforced (precisely to mankind) due to the great position ethical principles occupy in Islam.

KEYWORDS: Civilization, Morals, Cognitive Module, Islam

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

مقدمة

إن الحديث عن الأخلاق هو حديث عن مقومات جمالية روحية للإسلام، وعن مقامات معلومة سلكها النبي ﷺ وصحبه رضوان الله عليهم، حيث قعّد العلماء السابقون لهذه المبادئ بتأسيس شرعيتها من الكتاب والسنة، ونَقَلها اللاحق عن السابق منهجا عمليا بالرواية والسماع، فنشأ بذلك علم شرعي له قواعده وأحكامه واصطلاحاته كباقي العلوم الشرعية بعد ذلك.

لقد كان اهتمام المسلمين بالقيم الأخلاقية عظيما، بل يمكن اعتبارها الركيزة الأساس للدين كله، حيث كانت تدعو إليه أسباب مختلفة منها الدعوة إلى مكارم الأخلاق التي جاء بها الشارع الحكيم، عن أبي هريرة قال، قال رسول الله ﷺ: «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[1].

لم يعد مقصد بيان الأبعاد الحضارية لمفهوم الأخلاق عند علماء المسلمين مطلبا هامشيا مع تعدد المرجعيات الفكرية، والصراعات الأيديولوجية، بل هو اليوم ضرورة مُلحّة في الواقع المعاصر، خصوصا في ضوء الأزمة الأخلاقية العالمية التي تعيشها الإنسانية، والتي عرّت واقع الحداثة بافتقارها للقيم الدينية المؤطرة لتوجهها، وبذلك أصبح العقل المتحرّر من سلطة الدين -الذي كان يُؤمل منه تحقيق التقدم والتنوير المطلوبين- عقلا محتلاً بشهوة المصلحة والاستحواذ، فكانت نتائجه كارثية على الإنسان، حيث أصبح الإنسان في واقعه المعاصر اليوم في أزمة أخلاقية حقيقية لم يسبق لها مثيل في تاريخ البشرية،

(١) أخرجه أبو داود في مسنده «مسند أبي هريرة رضي الله عنه»، ج٢، ص٣٨١، حديث رقم: ٨٩٣٩، اسناد قوي ورجاله رجال الصحيح غير محمد بن عجلان فقد روى له مسلم متابعة وهو قوي الحديث.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

فالحضارة التي أنشأها انقلبت عليه بالشقاء بدل السعادة، وبالانحدار الأخلاقي بدل السمو الروحي، وبالقلق النفسي بدل الاطمئنان القلبي...إلخ.

لقد أدرك علماء المسلمين في عصر رقي الحضارة الإسلامية المكانة الكبيرة للمبادئ الأخلاقية في النموذج المعرفي الإسلامي، ففي التشريع، وفي الحرب، وفي السلم، وفي الاقتصاد، وفي الأسرة وفي مجالات العلوم المختلفة، روعيت المبادئ الأخلاقية تشريعا وتطبيقا، وبلغت في ذلك شأوا ساميا بعيدا لم تبلغه حضارة في القديم والحديث، ولقد تركت الحضارة الإسلامية في ذلك آثارا تستحق الإعجاب وتجعلها وحدها من بين الحضارات التي كفلت سعادة الإنسان، سعادة خالصة لا يشوبها شقاء، بل إنه لم تقتصر فائدة هذه المبادئ والقيم على المسلمين، بل استفادت منها الإنسانية جمعاء، حتى أن مفكري الغرب يشهدون بأن الحضارة الإسلامية هي من أروع ما عرف التاريخ تسامحا وعدالة ورحمة وإنسانية، نحن اليوم في أشد الحاجة للتعريف بها وبيان أبعادها على الحضارة الإنسانية.

انطلاقا من هذه المقدمة سأتناول هذا الموضوع وفق ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: مرجعية الوحي الأخلاقية في النموذج المعرفي للحضارة الإسلامية
- المبحث الثاني: البعد الأخلاقي في الجانب التصوري الاعتقادي للحضارة الإسلامية
- المبحث الثالث: البعد الأخلاقي في الجانب العلمي والمعرفي للحضارة الإسلامية

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

المبحث الأول
مرجعية الوحي الأخلاقية في النموذج المعرفي للحضارة الإسلامية

لقد خلق الله الإنسان وجمع فيه المادة والروح في توازن دقيق يحكم حياته وبما أن الحضارة نتاج إنساني، فإنها تنطلق من قاعدتين أساسيتين هما المكونان الرئيسيان للإنسان :الروح والمادة، إلا أن الجانب الروحي هو منطلق الحضارة ومبدؤها الأساسي في الإشعاع المادي بعد ذلك، إذ «إن الحضارة وشرارتها الأولى تنطلق من صدور نفر قدوة من الرجال المشحونين روحيا بقيم وأفكار ومبادئ توقد الشعلة(...) وتحرك الإنسان ليلتحم مع ماديات عصره فيشكلها ويطورها حتى تستوي له الحضارة باسقة الزروع، ويجد المتتبع لمنحنى نشوء ونمو وارتقاء الحضارات أن الروح تنهض بدور أساسي في بدء النشوء ثم ما يلبث المنحنى في الصعود بآندماج الروحانيات المتقدمة في ضمائر الرجال مع العناصر المادية اللازمة للحياة من مستلزمات العصر، فترتقي مسيرة الإنسان الحضارية ليصل المنحنى لقمته عندما يضبط الإنسان التوازن بين ماديات الحياة وروحانيان العقيدة وقيمها»[1].

إن مرجعة الوحي في النموذج الحضاري الإسلامي تتبدى في اتجاهين أحدهما «لا يستطيع الإنسان الوصول فيه إلى المعرفة الصحيحة بنفسه، فيتكفل الوحي بأمر بيانه كشأن العقيدة وأمور الغيب والثاني يستطيع الإنسان الوصول فيه إلى المعرفة الصحيحة بما أودع الله الفطرة من الأدوات في ذلك، فيكتفي الوحي بالتوجيه ووضع المنهج

(١) سفر، محمود محمد «ثقب في جدار التخلف»دار الصافي للنشر والثقافة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٠ه-١٩٨٩م، ص٢١٨-٢١٩.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

الصحيح للعمل والتفكير»[1]، وهذا ما أشار إليه مجموعة من المفكرين عند حديثهم عن التكامل بين القراءتين: قراءة الوحي المسطور وقراءة الوحي المنظور في الرقي والإشعاع الحضاري، «هذه القراءة التي تعتمد مستويات ثلاث هي التأليف والتوحيد والدمج بين القراءتين وهذه المنهجية بمستوياتها الثلاثة هي التي بإمكانها أن تكشف لنا عن قوانين الحركة الإجتماعية والتاريخية والسنن الإلهية في الكون والإنسان، في الأفراد والجماعات في النظم والعلاقات في الثقافات والحضارات، وذلك لأن الجمع بين القراءتين يعتمد اعتمادا تاما على الربط المنهجي بين القرآن المجيد باعتباره الكتاب المطلق المتضمن للوعي المعادل المستوعب للوجود الكوني وحركته، وكذلك ما يتمثل في هذا الوجود من أشياء ودلالات لها، فالقرآن المنزل والكون المنشأ يكمل كل منهما الآخر في الكشف عن دلالات الوجود الكوني وقوانينه وسننه، يحقق القرآن ذلك بالوحي المقروء المنطوق، ويحقق الكون ذلك بحركته القائمة على قوانينه وسننه وبذلك تصبح القراءة في كل منهما متممة للقراءة في الآخر ومبينة لدلالاتها، وتتظافر تلاوة آيات الكون وقوانينه وسننه مع تلاوة آيات الكتاب وسوره للكشف المشترك عن منهجية معرفية كونية لا يمكن الكشف عنها إلا بذلك»[2].

إن المنهج العقلي والعلمي الذي ارتكزت عليه الحداثة العقلية في واقعنا المعاصر والذي فصل قراءة الوحي المسطور عن قراءة الوحي المنظور هو الذي أنتج مفاهيم وتصورات لا تحترم كرامة الإنسان وتصُون قِيَمهُ، وفي هذا رأى عبد الوهاب المسيري أن

(١) قطب، محمد «واقعنا المعاصر» دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤١٨ه-١٩٩٧م، ص٨١-٨٢.
(٢) العلواني، طه جابر، من تصدير كتاب منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية للطيب برغوث، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي(١٧)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٦ه-١٩٩٦م، ص٣٣.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

المفهوم العلمي والتكنولوجي للتقدم، الذي تتبناه الحداثة الغربية إنما هو مفهوم مادي محض للتقدم، يطغى على أي جانب من الجوانب الإنسانية للتقدم، ولا يعترف بها إلا كجوانب ثانوية أو كجوانب ذاتية تخص الأفراد كلاً على حدة، أو كلاً على هواه ومعاييره الذاتية الخاصة به وحده دون غيره(١).

فالعقل المتحرر من سلطة الدين الذي كان يُؤمل منه تحقيق التقدم والتنوير المطلوبين، صار عقلا محتلاً بشهوة المصلحة والاستحواذ، فكانت نتائجه كارثية على الإنسان خصوصا حين جعل العقلَ الوسيلة الأشد فظاعة لاستلاب الإنسان، يقول طه عبد الرحمن في ذلك «فالعقل المجرد هو بالذات العقل الذي يخلو من اليقين في نفع المقاصد التي اختارها، وبالأوْلى من اليقين في نُجوع الوسائل التي اتخذها، ولا نستغرب إذ ذاك لأن ينقلب بالضرر على الإنسان، إن قليلا أو كثيرا»(٢).

إن الانتكاسة التي عرفتها المعرفة التي أنتجها عقل الحداثة الغربي على مستوى الارتقاء بإنسانية الإنسان، راجعة إلى كون هذا الفكر انبنى على مبدأين جعلا هذه المعرفة تنحصر تطلعاتها في أفق المادة، وتقصر عن إدراك الأشياء في كليتها، وهذان المبدآن هما:

الأول: «فصل العقل عن الغيب، فكل ما لا تفيد التجربة الحسية ولا تقديرات العقل المجرد في الإحاطة به أو بوصفه، ينبغي إبعاده من مجال العلم وإدراجه في دائرة الأسطورة أو اللاعقل الذي يخص حياة الفرد الشخصية.

(١) نظر: عبد الوهاب المسيري»دراسات معرفية في الحداثة الغربية»، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٣٧-٣٨.

(٢) طه عبد الرحمن»سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية»، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠م، ص٦٨.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

الثاني: فصل العلم عن الأخلاق، فلا مجال في العلم للاعتبارات التي تصدر عن التسليم بقيم معنوية مخصوصة، أو عن العمل بقواعد سلوكية معينة، على اعتبار أن العلم ينبغي أن يخضع لمبدأ الموضوعية فقط، الذي يستبعد أي تدخل للقيم الخلقية والروحية في مسار العلم»[1].

لقد أدى الأخذ بهذين المبدأين في الممارسة العلمية إلى إنتاج معرفة ذات طابع آلي» تنزل كل شيء منزلة الظاهر الذي ينبغي التحكم فيه، ولا تتطلع إلى ما وراءه من الدلالات الخفية، ولا إلى ما بَطُن من الأسباب الممتنعة عن المراقبة الآلية»[2]، ولا يخفى أن المعرفة الآلية لا يمكن أن تشكل الحداثة الحقيقية التي يتطلع الإنسان إليها، لأنها معرفة قاصرة لا تُبصر إلاّ الجانب المحسوس فيه، ناسية أو متناسية جانبه الروحي والأخلاقي، ولا شك أن الحضارة التي تنبني على مثل هذا التصور الناقص لا يمكن أن تتجه بالإنسانية إلا إلى دمارها ونقص إنسانيتها، ولذلك نجد بعض علماء الحضارة الغربية يدقون ناقوس الخطر، منبهين الإنسانية وقادة العالم إلى أن الاستمرار في هذا التوجه من الحداثة سيفضي لا محالة إلى الكارثة، التي لن تعود على الإنسانية إلا بالمساوئ بدل جلب المصالح[3]، يقول ألبرت أشفيتسر»الخاصية المروعة في حضارتنا(أي الحضارة الغربية) هي أن تقدمها المادي أكبر بكثير من تقدمها الروحي(...)، إن الحضارة التي لا تنمو فيها إلا النواحي المادية دون أن يواكب ذلك نمو متكافئ في ميدان الروح، هي أشبه ما يكون

(١) نفسه، ص٩٢.
(٢) نفسه، ص٩٤.
(٣) ينظر: مصطفى أمقدوف «الأخلاقية أفقا للتغيير نحو بناء إنسانية جديدة بحث في فلسفة طه عبد الرحمن»، عقول الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م، ص١١٩-١٢٠.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

بسفينة اختلت قيادتها ومضت بسرعة متزايدة نحو الكارثة التي ستقضي عليها»[١].

فالنظام العلمي والتقني للحداثة الغربية في سَعْيِه على السيادة بعيدا عن الأخلاق، يكون قد كشف عن سلبياته بعد أن كان أنصارُه يعتقدون أن التقدم العلمي والتقني قادر أن يرفع عن الإنسان أسباب الشقاء، وأن يمدّه بأسباب السعادة، فإذا به يُلقي بالإنسان في دوّامة من الشك والقلق على مصيره، لما ورثه من آفات لا حصر لها «وبِترك هذه العقلانية المتعَمَّد لجانب الاشتغال من الأخلاق الدينية، تكون قد تركت المصدر الأساسي الذي ظل يمد أطواره الثقافية والحضارية بمعاني الحياة، ومعايير السلوك وقيم العمل، فأغلقت دونها باب تحصيل المعاني الاشتغالية التي لها من القوة ما تستطيع أن تضاهي به قوة التمكنات المادية التي انفتحت لها، فتحفظ هذه التمكنات من أسباب الضرر التي قد تتطرق إليها»[٢].

لقد سد الإسلام هوة الثغرة في التجربة التاريخية بين العلم والأخلاق بإحداث توازن بين عُنصرَي الروح والمادة، وأخلاقية الحياة والعلوم، فالإسلام لا يفرّق بين العقيدة والعلم والتقنية، بل على العكس يوحد بينها في بنية واحدة متماسكة، لأن «كل تقدم مادي يتطلب تقدّما روحيا يفوقه أو على الأقل يساويه حتى يحصل الانتفاع به»[٣]، ومن هنا يرى طه عبد الرحمن أن الحداثة الغربية بنظامها العلمي والتقني لا يمكن درء آفاتها إلا بالعودة إلى الإسلام، أي تخليق النظام العلمي والتقني وَفق المبادئ الأخلاقية التي

(١) ألبرت أشفيتسر»فلسفة الحضارة»، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، مراجعة: زكي نجب محمود، المؤسسة المصرية العامة، ط١، ١٩٦٣م، ص١٠٧.
(٢) طه عبد الرحمن»سؤال الأخلاق»، مرجع سابق، ص١٢٠.
(٣) طه عبد الرحمن»روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية»، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٣٣.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

جاء بها.لكن ما الذي يميز التجربة الأخلاقية الإسلامية عن باقي التجارب الأخرى؟

المبحث الثاني: البعد الأخلاقي في الجانب التصوري الاعتقادي للحضارة الإسلامية

إن أول ما يغير النفوس ويضبطها معتقداتها وتصورها عن الله والكون والحياة والإنسان قبل أي أمر آخر، فهو أولوية الأولويات والمضغة التي إذا صلحت صلح البناء كله وإذا فسدت اختل البناء كله، «فالإصلاح العقدي هو الأرضية الصلبة التي تشهد عليها صروح الرقي الفكري والروحي والأخلاقي والعمراني كلها، وتنطلق منها مسيرة الإنسان نحو التوافق النفسي والانسجام الاجتماعي في الحياة»[1]، ولذلك فالبناء التصوري الاعتقادي هو اللبنة الأولى التي تسمح لكافة الجوانب الحضارية الأخرى بالنماء والتطور، وأبرز مثال هو ما حققته الحضارة الإسلامية في عصر ازدهارها، فنجد الأساس التصوري هو العامل المهم في الرقي الحضاري، فما من خطوة في تاريخ البشرية حررت العقل وكرمته ووضعته في موقعه الصحيح كهذه الخطوة والتي أدت إلى « تحويل التوجه الإنساني من التعدد إلى الوحدة، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن عشق الحجارة والأصنام والتماثيل والأوثان إلى محبة الحق الذي لا تلمسه الأيدي ولا تراه العيون(...)، كسر للحاجز المادي باتجاه الغيب وتمكين للعقل من التحقق بقناعات تعلو على معطيات الحس القريب»[2].

فالتصور العقدي الإسلامي جاء من أجل إخراج الإنسانية من الضياع والتيه الفكري

(١) الطيب برغوث «منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية»،، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي(١٧)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٦ه-١٩٩٦م، ص٢٤٢.

(٢) خليل، عماد الدين «حول تشكيل عقل المسلم»المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي ط٤، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ص٤٧.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

والذي ينعكس بلا شك على القيم والأخلاق، والتي تنعكس بدورها على كافة المجالات المعرفية فتصيب المجتمع بالجمود والتبعية، فجاءت عقيدة الإسلام «لكي تنقل الإنسان إلى السعة والعدل والتوحيد(...) هنالك حيث يجد العقل نفسه وقد أعيد تشكيله بهذه القيم قديرا على الحركة والفعل عبر هذا المدى الواسع الذي منحه إياه الإسلام، غير محكوم عليه بظلم من سلطة فكرية قاهرة ترغمه على قبول مالا يمكن قبوله باسم الدين، متحققا بالتقابل الباهر بين الإنسان والله (...) حيث يملك وحده حق التوجه والتعبد والمصير»[1].

لقد جاء الإسلام يؤسس الحضارة على أسس من التصور العقدي الذي جاء يدعو الناس للإيمان به ويخط لهم منهجا مشتقا من ذلك التصور، «وذلك في تأصيل نظري يمثل المنطلق الإيماني لهذه الحضارة، ثم جاء يرسم لها حدودا ويقر لها أحكاما ذات صفة عملية ترشد مسارها، وتحافظ على صبغتها الإيمانية لتكون حضارة خلافية تحقق المهمة التي من أجلها خلق الإنسان، ولم تكن تلك التصورات المؤسسة ولا تلك الحدود والأحكام المرشدة جانحة للتجريد الذي يستعصي عن التنزيل، وإنما كانت هي الدافع الحقيقي لما تم بالفعل من إنجاز حضاري إسلامي، فتطابق إذن في الحضارة الإسلامية المبدأ والمنهج والإنجاز الواقعي»[2].

إن التصور الحضاري الإسلامي انطلق من إعادة صياغة عناصر الحضارة: وهي الإنسان والحياة والكون من منطلق عقدي إيماني أولا، ثم من منطلق علمي معرفي ثانيا، لتصاغ الحضارة الإسلامية في أكمل صورة، وما دمنا نتحدث عن الجانب التصوري

(١) خليل، عماد الدين «حول تشكيل عقل المسلم»، ص٤٨.
(٢) عبد المجيد النجار «معالم المنهج الحضاري في الإسلام»ثقافتنا للدراسات والبحوث، العدد الخامس والعشرون،١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م، ص١٤٩.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

الإعتقادي وسأتحدث عن الجانب المعرفي بعد ذلك، فلا بد من تحديد: كيف انعكست العقيدة على عناصر الحضارة آنفة الذكر؟ هذا ما عبر عنه المفكر مالك بن نبي بأثر الفكرة الدينية في نشوء الحضارة واستمرارها، «فالفكرة الدينية تؤثر على التوجه الحضاري للإنسان، فيتحرر الفرد جزئيا من قانون الطبيعة في جسده ويخضع وجوده في كليته إلى المقتضيات الروحية التي طبعتها الفكرة الدينية في نفسه، بحيث يمارس حياته في هذه الحال الجديدة حسب قانون الروح»[1].

هذا القانون نفسه هو «الذي كان يحكم بلالا حينما كان تحت سوط العذاب يرفع سبابته ولا يفتر عن تكرار قولته (أحد..أحد..)، إنها صيحة الروح التي تحررت من أسار الغرائز بعدما تمت سيطرة العقيدة عليها نهائيا في ذاتية (بلال بن رباح)»[2]، وهذا القانون كذلك هو الذي أعاد صياغة الأولويات عند أبي بكر الصديق عندما وهب ماله في سبيل الدعوة في الفترة المكية، ونحن نعلم طغيان الجوانب المادية في الحياة العربية قبل الإسلام، فسيطر الجانب الإيماني في نفسية أبي بكر رضي الله عنه على الجانب المادي، بل أصبح هذا الجانب المادي خادما للجانب الإيماني، وذلك بفضل العقيدة التي أعادت صياغة العقل العربي.

فالعقيدة عندما تنطبع في حياة الأفراد والجماعات تزكي النفس الإنسانية وترشد سلوك الإنسان مع نفسه أو في إطار علاقته مع غيره، «فالتزكي الإنساني في هذين المسارين الفردي والاجتماعي هو الترقي الحضاري، ويعتبر نقيضه انحطاطا حضاريا في المنظور الإسلامي، فهذا المسار تعود المرجعية فيه في جميع وجوهه إلى توجهات الوحي،

(١) مالك بن نبي، «شروط النهضة»ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، طبعة ١٤٠٦ه-١٩٨٦م، ص٦٧.
(٢) نفسه، ص٦٧-٦٨.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

فمهما يكن من خلق فردي يتخلق به الإنسان أو علاقة اجتماعية يقوم عليها المجتمع فإن المحدد لها والموجه إليها هو الوحي، وليس للعقل المستقل عن الدين أن يرسم من ذلك شيئا كما هو الشأن في مذاهب الأخلاق الاجتماعية، أو في الفلسفات الوضعية التي تقيم حضارتها على ما يتواضع عليه الناس بمحض عقولهم كما هي الحضارة الغالبة اليوم»[1]، وهذا ما أسقط الفكر الغربي في انحلال العلاقات الاجتماعية من تفكك أسري وظلم اجتماعي وفساد أخلاقي.

وإذا كانت الفكرة الدينية تقوم سلوك الإنسان حتى تجعله قابلا لإنجاز رسالة متحضرة، فإنها تحل مشكلة نفسية اجتماعية أخرى ذات أهمية أساسية تتعلق باستمرار الحضارة، «فالمجتمع لا يمكنه مجابهة الصعوبات التي يواجهه بها التاريخ كمجتمع، ما لم يكن على بصيرة جلية من هدف جهوده، غير أن النشاط الاجتماعي لا يكون مثمرا وفعالا وقابلا للبقاء والاستمرار إلا بوجود سبب معين يكون من شأنه أن يوجه الطاقات التي يحركها هذا السبب بغائية معينة، وذلك بمنحه إياها الوعي بهدف معين تصبح معه الحياة ذات دلالة ومعنى، وهي حينما تمكن لهذا الهدف من جيل إلى جيل، ومن طبقة إلى أخرى فإنها حينئذ تكون قد مكنت لبقاء المجتمع ودوامه وذلك بتثبتها وضمانها لاستمرار الحضارة»[2]، وهنا تظهر آثار العقيدة على الحياة التي هي من عناصر الحضارة.

كما أن الجانب الاعتقادي له تأثير على التصور الشامل للكون فينتفي الصراع بين الإنسان والكون، والذي إتخذه الفكر الغربي معيارا حضاريا، وهذا التأسيس العقدي الثقافي في التعامل مع الكون وجه الثقافة الإسلامية «باعتبار أن العلاقة بين الإنسان والكون هي علاقة محبة وود ووئام، وليست علاقة عداء وصراع كما هو الشأن في

(١) عبد المجيد النجار «معالم المنهج الحضاري في الإسلام»، ص١٥٣.
(٢) مالك بن نبي»شروط النهضة»، ص٧١-٧٢.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

الحضارة الرومانية سابقا، وسليلتها الحضارة الغربية حاليا، وهو ما أثمر في المخزون الثقافي نزوعا إلى الرفق بطبيعة الكون، والحفاظ عليه من أسباب الفساد استجابة لرابطة الود والمحبة»[1].

إن النظر في صفحات التاريخ يبرز لنا الدور الذي يمكن أن يقوم به الجانب التصوري الاعتقادي في وصول الأمم إلى قمة الرقي الحضاري، وبمعرفة ذلك نستطيع تسليط الضوء على الأسباب التي تؤدي بالأمم في هذا العالم إلى طرق المجد، والأسباب التي تجلب لها الدمار، إن من الصفات ما إذا نمته الأمم في أبنائها نالت به السيطرة والسيادة، وإذا فقدته تردت إلى الحضيض في سلم الرقي والتقدم الحضاري.

إن انعكاس العقيدة على عناصر الحضارة (الإنسان، الحياة، الكون)، تتمثل في مجموعة من القيم والمبادئ التي تنطبع في نفسية الإنسان، وتنعكس بلا شك على الحركة الحضارية للأمة بعد ذلك، «هذه الحركة الحضارية التي لا تبرز في مرحلة الإنشاء والتكوين لأنها تحتاج إلى استقرار لا يتوفر في مرحلة الإنشاء، وإلى جهد فائض عن الضرورات، بينما الجهد كله في مرحلة الإنشاء يبذل في التأسيس والتمكين، كما تحتاج إلى زمن يمضي بعد استكمال التكوين تتم فيه عملية (التمثيل) للقيم والمبادئ والأفكار لتتجه بعد ذلك إلى (الإنتاج) في مجالات العلم والحضارة المادية، ولكن (البذرة) التي تتولد عنها الحركة الحضارية والعلمية تظل كامنة حتى تستوفي نضجها الطبيعي، فتولد كما يولد الجنين المكتمل الأعضاء بعد أن يستكمل أطواره في خفية عن العيون»[2].

إن هذه القيم والمبادئ والأفكار التي صاغها الوحي في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم، وكانت دافعا للإنتاج الحضاري بعد ذلك، تتمثل في مجموعة من الصفات التي

(١) عبد المجيد النجار، «معالم المنهج الحضاري في الإسلام»، ص١٧٦.
(٢) محمد قطب، محمد «واقعنا المعاصر»، ص٧٩-٨٠.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

تشربتها عقول المسلمين ونقلت حقيقة تصورهم عن الإنسان والكون والحياة، إلا أن الدارس للجانب التصوري الاعتقادي ودوره في بناء الحضارة يجد أن العقيدة لعبت دورين مهمين أولهما فردي يعمل على بناء الفرد المسلم، والآخر جتماعي يعمل على بناء الأمة المسلمة، وبذلك يتبدى لنا أن دور العقيدة لم يقتصر على الجانب الفردي للإنسان بل تعداه إلى الجانب الإجتماعي الذي يحكم علاقة الإنسان بالإنسان، يمكن إذاً تقسيم هذا الدور إلى:

١. بناء الفرد المسلم (الفترة المكية للدعوة الإسلامية)

لقد كانت الصناعة الثقيلة التي بدأت بها الدعوة الإسلامية فأقامتها، منذ المرحلة المكية هي صناعة الصياغة الإسلامية للإنسان الذي تدين بدين الإسلام، «لقد كانت (دار الأرقم بن أبي الأرقم)، في مرحلة سرية الدعوة الإسلامية، أي منذ فجر تلك الدعوة هي أولى المؤسسات التربوية التي أقامها رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام، وقبل فتح المسلمين للمدائن والأمصار والأقطار، وقبل إقامة الدولة، وتغيير الواقع، وتطبيق القانون، وبلورة العلاقات الدولية، كان الفتح الإسلامي للقلوب والعقول بهدى القرآن الكريم، ذلك الذي أصبح خلقا وسلوكا وممارسات وسجية للحياة التي يحياها المسلمون، بل إن أولى المدن التي فتحها المسلمون قبل الهجرة النبوية، وقبل الدولة الإسلامية وهي المدينة المنورة، قد فتحها المسلمون بالقرآن الكريم»[(١)].

إن البدء كان في المرحلة المكية والتي استغرقت ثلاثة عشر عاما بإعادة صياغة الإنسان والجماعة المؤمنة، والجيل الفريد وفق المعالم الإيمانية للقعيدة الإسلامية، «إن الدرجة الأولى في سلم التغيير الكبير والجذري والشامل والعميق هو تغيير النفس الإنسانية

(١) عمارة، محمد «في فقه الحضارة الإسلامية»، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط ٢، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م، ص١٠٧.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

كي تصبح قادرة على تغيير الواقع وفق المنظومة القيمية الإيمانية»[1]، مصداقا لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[2].

إن الباعث على التغيير الحضاري الذي عرفته الحضارة الإسلامية انطلق من التربية الإيمانية للجيل الأول من المسلمين، «فبعد إنجاز الصياغة الإسلامية بالتربية للإنسان، جاءت كل الإنجازات والفتوحات، في ميادين الحضارة وعلومها والثقافة وآدابها وفنونها، فكانت تجسيدا لهذا الذي سبق وتم إنجازه في نفس الإنسان، جاءت جميعها مصاغة بمعايير الإسلام، التي سبق وصاغت نفوس وعقول وقلوب الذين اهتدوا بهدى الإسلام»[3].

٢. بناء الأمة المسلمة (الفترة المدنية للدعوة الإسلامية)

إن الجانب التصوري الاعتقادي، لم يقتصر على الجانب الفردي، وإنما انتقل بعد ذلك إلى بناء الأمة، فنجد أن كل الصفات التي وقرت في قلوب الصحابة من إيمان أشرقت في نفوسهم اليقين، وبذلك انعكست على سلوكهم الاجتماعي في الفترة المدنية من الدعوة الإسلامية، «فقوة الإيمان بالله والتصديق برسوله ﷺ تجعل النفس الإنسانية تشرق بالكثير من صفات الخير، وتتخلق بالآداب والفضائل العظيمة»[4]، ولذلك نجد أن أول بوادر تشكل الأمة الإسلامية، هي عند الإخاء بين المهاجرين والأنصار، فنجد أن معيار هذه العلاقة الأخوية لم يكن الانتماء العرقي أو القومي أو الجنسي، وإنما كانت

(١) نفسه، ص٧٢.
(٢) سورة الرعد الآية١١.
(٣) عمارة، محمد «في فقه الحضارة الإسلامية»، ص١٠٧.
(٤) السايح، أحمد عبد الرحمن «فلسفة الحضارة الإسلامية»، الناشر وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، (د.ط)، القاهرة ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ص٣٢.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

علاقة مصطبغة بالمعيار العقدي، كما لم تكن هذه المؤاخاة طبقية بين شريف وشريف، ولم تكن مؤاخاة قومية بين عربي وعربي، وإنما كانت مؤاخاة بين مسلم ومسلم، بغض النظر عن اللغة أو الجنس أو اللون أو الوضع الاجتماعي، فكان رابط الإيمان هو المحدد بصرف النظر عن وجود الروابط الأخرى من عدمها، «فقد آخى الرسول ﷺ بين عمه حمزة ومولاه زيد، وبين أبي بكر وخارجة بن زيد، وبن رواحة الخثعمي وبلال بن رباح، والتقى في بوثقة العقيدة التي صهرت كل فوارق الجنس واللون واللغة بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وسلمان الفارسي مع أبي بكر وعمر وعثمان وعلى سائر الصحابة رضوان الله عليهم، إنها الأمة في معناها الحقيقي الذي لم يتحقق في أي تجمع آخر من تجمعات التاريخ، إنها أمة العقيدة، ذات الرباط الحقيقي الذي ينشئ الأمة في صورتها الحقيقة»(١).

إن المبادئ التي جاءت بها الأخوة الإسلامية والتي كانت هي البوادر الأولى لتشكيل الأمة في الإسلام، هي التي انعكست على سلوك المسلمين فيما بينهم، وهي التي جعلت المسلمين يدركون بما لم يجعل لديهم أي مجالا للشك من أنهم متساوون في الحقوق والواجبات، فكان التوجه التصوري العقدي للوحي في المرحلة المكية، مختلفا عنه في المرحلة المدنية فيبرز بذلك دور الجانب العقدي في كل مراحل الدعوة الإسلامية، إن مدلول العقيدة الذي جاء في الحديث عن الرسول الكريم، قال الرسول ﷺ :«الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(٢)، جاء كما قال عبد المجيد النجار مجملا، «والمتأمل للقرآن الكريم يجد مدلولا عاما للعقيدة بحيث

(١) قطب، محمد «واقعنا المعاصر»، ص٥٠-٥١.

(٢) السيوطي، جلال الدين جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر»الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير، تحقيق يوسف النبهاني، دار الفكر بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ج١،

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

يشمل هذا المدلول الإيمان بكل ما جاء به من عند الله في القرآن والحديث من أوامر ونواه، فإنكار أي منهما وتعطيل العمل به مع ثبوت نسبته إلى الوحي يعد ناقضا للعقيدة»[1]، وهو مدلول قوله تعالى ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾[2]، وقوله تعالى ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾[3]، فمدلول العقيدة إذاً يشمل الإيمان بكل ما جاء به الدين من تعاليم تصديقا بحقيقتها وبوجوب العمل بها.

إن دور العقيدة في التوجيه الحضاري في الفترة المدنية من الدعوة الإسلامية، شمل أربعة أبعاد، «بعد خلافي أو استخلافي عام، وبعد اجتماعي، وآخر ذو بعد كوني، ورابع ذو بعد تشريعي»[4]، وهذه الأبعاد لعبت الدور الكبير في اكتمال المنظور الشمولي للتصور الحضاري الإسلامي، «إن القضايا ذات البعد الخلافي العام، تشمل حقيقة خلافة الإنسان في الأرض باعتبارها المهمة التي خلق من أجلها الإنسان، وتشمل أيضا حقيقة الإنسان نفسه في خلقه الأول وفي تركيبه من المادة والروح، وفي قيمته الذاتية ومنزلته في الكون، كما تشمل أيضا شهادة الأمة الإسلامية على الناس، باعتبارها المهمة التي أناطها الله بها إزاء الأمم، تبليغا للدعوة إليها وإنقاذ لها من الضلال، وتنوير لها بالعلم والدين، وقياما إزاءها بالقسط والعدل وهذه القضايا هي من صلب العقيدة الإسلامية»[5]،

ص٤٧١. أخرجه البخاري البخاري ومسلم، وجاء في البخاري في كتاب الإيمان باب سؤال النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام.

(١) عبد المجيد النجار، عبد المجيد «دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية»، مجلة إسلامية المعرفة، العدد الأول، ص٦٤.

(٢) سورة المائدة الآية ٤٤.

(٣) سورة النساء الآية ٦٥.

(٤) عبد المجيد النجار، «دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية»، ص٦٩.

(٥) نفسه، ص٦٩.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

ونجد أن المنطلق العقدي في البعد الاستخلافي هو الذي كان دافعا للحضارة الإسلامية في هداية الناس جميعا إلى الدين الحق، والتطلع كذلك إلى ما يفيد الإنسانية في الجانب العلمي والمعرفي، «والقضايا ذات البعد الاجتماعي تشمل حقيقة العدالة الاجتماعية، وحقيقة التكافل بين أفراد الأمة، وكفالة الأمة لأفرادها، وحقيقة الحرية الشخصية والعامة بضوابطها، وحقيقة حق الإنسان في التكريم المادي والمعنوي، فهذه القضايا هي أيضا من مدلول العقيدة الإسلامية»[1]، فاندراج هذه الحقائق الاجتماعية ضمن مدلول العقيدة هو الذي نقل تصور الجيل الأول من المسلمين، حيث أصبحت مجموعة من المبادئ والقيم مندرجة ضمن وعيهم العقدي، وأعطي مثالا بقضية العدالة الاجتماعية، فإقامة العدل بين الناس سواء فيما بين المسلمين أنفسهم أو بينهم وبين غيرهم، هي صفة اتصف بها المجتمع الإسلامي الأول، وهذه الصفة هي التي تنقص أمم العالم اليوم نقصانا فظيعا، وهذا النقص هو الآفة التي تنخر حياة الإنسان في العصر الحديث، إن هذه الصفة التي هي إقامة الحق دوما لم تكن أقل تأثيرا في رفع المسلمين إلى قمة المجد، ويتجلى ذلك في قول الرسول ﷺ «والذي نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[2].

وتتجلى بذلك العدالة الاجتماعية بين المسلمين، بل نجد هذه العدالة موجودة حتى بين المسلمين وغير المسلمين، ونعطي مثالا لذلك بما وقع في المدينة المنورة، عندما سرق أحد المنافقين ممن دخلوا في الإسلام ظاهرا وتفنن هو وقومه في إخفاء السرقة بحيث يتهم فيها أحد اليهود من أهل المدينة، «وحين فحص الرسول الكريم ظروف القضية،

(١) نفسه، ص٦٩.

(٢) النسائي في سننه ج٨، ص٧٣ حديث رقم ٤٨٩٨، وفي ج٤، ص٣٣٣، حديث رقم ٧٣٨٥، البيهقي في سننه الكبرى ج٨، ص٢٨٠، حديث رقم ١٧٠٧٥.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

فقد هم حسب القرائن الظاهرة أن يحكم على اليهودي، ولكن الوحي تنزل لتبرئة ذلك اليهودي من الجريمة التي لم يرتكبها، وإن كان قبيله واقعين في كل جريمة ظاهرة وخفية ضد المسلمين، وإدانة المسلمين الذين أرادوا أن يفلت جانيهم من العقوبة، ويقع فيها اليهودي البريء، لقد كان هذا درسا هاما للأمة المسلمة، إن ميزان العدل لا يمليه حب ولا بغض، ولا يمليه عصبية ولا قرابة ولا مصلحة أرضية، بل لا يميل حتى إلى جانب المشاركين في العقيدة على حساب المخالفين لها ولو كانوا في مجموعهم ظالمين»[1]، وصفة العدل بهذا المنهج، هي المرشد والمعين للحضارة الإسلامية في عصور ازدهارها، كذلك كانت التربية التي رباها الرسول ﷺ لهذه الأمة ممثلة في جيلها الأول المتفرد، لكي تكتسب السمة التي تجعلها جديرة بالتمكين في الأرض، ونجد صفة العدل ارتبطت بالحضارة الإسلامية طوال فترة عزها وازدهارها في حين غياب صفة العدل في المجتمع كانت سبب تراجع الحضارة وإضمحلالها.

والقضايا ذات البعد الكوني «تشمل قضية تسخير الكون للإنسان وأنه معد لأجله، ومنفتح لإستعطائه، وممهد له لينجز مهمته التي من أجلها خلق، وقضية استثمار الكون والانتفاع بمرافقه وتسخير مقدراته لبناء الحياة في اتجاه الغاية وهي تحقيق الخلافة، ابتداء بالتدبر والتفكر لتحصيل العلم، وانتهاء بالاستثمار التطبيقي النفعي لذلك العلم، وقضية الرفق بالكون والحفاظ عليه من أن تناله أيدي الفساد والتدمير»[2]، وهذه القضايا كلها ذات بعد عقدي فإذا لم يتعامل الإنسان مع الكون بهذا المنطلق، فإنه سيؤدي به ذلك إما إلى الاستغلال المفرط للطبيعة والذي لا تحده حدود، وإما إلى الإفساد في الكون وكلاهما يؤدي إلى تعطيل مهمة الإنسان التي خلق من أجلها، وسأعطي مثالا سريعا

(١) محمد قطب «واقعنا المعاصر»، ص٦٢-٦٣.

(٢) عبد المجيد النجار «دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية»، ص٧٠.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

على التأصيل العقدي لحماية الكون من الإفساد، فقد جاء في الحديث النبوي الشريف عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال «دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت هزلا»[1]، وهذا الحديث هو إشارة إلى فداحة التخريب في الكون بالإفساد، وعقاب من يفعل ذلك في الآخرة مما يبين البعد العقدي لهذه القضية.

أما القضايا ذات البعد التشريعي «فتشمل كل أحكام الشريعة الإسلامية من حيث الإيمان بحقيقتها، فحكم الوجوب للصلاة والزكاة والحج، وحكم الحرمة للزنا والربا والخمر، وكذلك سائر أحكام الشريعة، يندرج الإيمان بحقيتها ضمن مفردات العقيدة، إذ جحودها والتكذيب بها يفضي إلى انحلال الإيمان وانتقاضه»[2]، وبذلك يظهر لنا أن الجانب العقدي يشمل جميع جوانب الإنسان الفكرية والعملية، تنطلق من التصديق وتبرز تجلياتها في العمل الذي لا ينفك عنها، «فليست العقيدة الإسلامية مفاهيم تنحصر قيمتها في التصديق القلبي بها في حد ذاتها، وإنما ذلك هو جزء من الإيمان بها فحسب، باعتبار أن معرفة الحق والإيمان به فضيلة مطلوبة في ذاتها، والجزء الثاني من تلك القيمة هو ما يحدثه الإيمان بالعقيدة من أثر شامل في حياة الإنسان الفكرية والعملية»[3]، والرسول ﷺ جسد التمثل العملي للعقيدة في حياة المسلمين بما اتصف به عليه الصلاة والسلام من صفات خلقية، وقد ضرب لنا النبي ﷺ أمثلة متعددة للصدق والنزاهة حتى وصف بالصادق الأمين، كما وصف بغيرها من الصفات من إخلاص وكرم فكان قرآنا يمشي

(١) مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري»الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم»، دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ط، ج٨، ص٩٨، رقم الحديث:٧١٥٨.
(٢) عبد المجيد النجار، «دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية»، ص٧٠.
(٣) نفسه، ص٧٤.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

على الأرض، ولذلك عندما سئلت أمنا عائشة رضي الله عنها عن خلق النبي ﷺ قالت كان خلقه القرآن، لقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يقدمون حبه على حب أنفسهم، ولذلك عندما تردد عمر بن الخطاب في تقديم حب النبي ﷺ عن حب نفسه أخبره الرسول الكريم أن درجة الإيمان لا تكتمل إلا بتقديم الرسول عما سواه، وبذلك يكتمل الإيمان المفجر للطاقات الإنسانية، عن عبد الله بن هشام قال: «كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ (لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك)، فقال له عمر فإنه الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي، فقال النبي ﷺ (الآن يا عمر)»[1].

إن الصفة التي اتصف بها الجيل الأول من المسلمين والتي لا بد للحضارة الإسلامية من إعادة استحضارها، هو أن تضع الأمة أمامها مثلا أعلى ثم تتشرب نفسها حبا مفرطا له، «إن التطلع إلى بلوغ المثل الأعلى يوقظ في الأمة ما فيها من الصفات الكامنة، فالهدف هو غاية ما تحتاجه الأمة السائرة في طريق التقدم، والأمة التي لا هدف لها لا تستطيع أن تحرز تقدما يعتد به، إن العقيدة الراسخة في المثل الأعلى العظيم للإنسان دائما صفة قوية محركة ومفجرة للطاقات، ولم يقتصر نجاحها في الماضي على أن غيرت حياة الإنسان الشخصية كلها، بل نجحت كذلك في تغيير مصير أمم بكاملها»[2]، فكيف انعكس الجانب التصوري الاعتقادي على الجانب العلمي والمعرفي فخلق حضارة إسلامية قوية؟

المبحث الثالث: البعد الأخلاقي في الجانب العلمي والمعرفي للحضارة الإسلامية

(١) البخاري، محمد بن اسماعيل أبو عبد الله الجعفري»صحيح البخاري»، تحقيق:مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج٦، ص٢٤٤٥، رقم الحديث:٦٢٥٧.

(٢) صدقي، عبد الحميد «تفسير التاريخ» ترجمة الدكتور كاظم الجوادي، دار القلم، الكويت، ط١،

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

إن الرغبة في العلم والمعرفة رغبة فطرية أودعها الله لتكون إحدى أدوات الإنسان للقيام بعمارة الأرض، والجانب المعرفي الذي نتحدث عنه في التصور الإسلامي لا يتناقض مع الجانب التصوري الاعتقادي، كما هو في الحضارة الغربية فتم فصل الدين عن الدولة في البناء الحضاري، وإنما فيه تكامل من الضروري الأخذ به من أجل البناء الحضاري السليم.

لقد نبهنا الوحي منذ البداية إلى وجوب النظر في الكون العام، وفي النفس الإنسانية، وفي الأسباب والمسببات، فأشرقت به المعرفة الصحيحة للإنسانية، وبذلك وضع الإسلام أسس المعرفة التي تهدي الإنسان إلى الخير، «إن المعرفة في الإسلام تقوم على أساس التعادل بين الكم والكيف، وبين المادة والروح، وبين الغاية والسبب، وبين الدنيا والآخرة، فلا إفراط ولا تفريط، لقد ربط الإسلام بين الحواس المرهفة، وبين العقل الباحث المنظم والوجدان النقي، وكل ما جاء في القرآن الكريم في الحث على التفكر، دليل على مكانة العقل، والعلم، والمعرفة في الإسلام، إذ العقل آلة التفكير، والعلم ثمرة التفكير فكل ما ورد في القرآن حث على التفكير، وهو اعلان عن فضل العقل، وإيحاء بالعمل على تربيته وتقويته، وهو في الوقت ذاته تسجيل لفضل العلم، حتى يتمكن الإنسان من الحقائق وتزول عنه غشاوة الجهل، ويتحرر من رق الأوهام، والخرافات والأساطير التي لا صلة لها بواقع الحياة، وبهذا كان الإسلام دين الفكر، والعقل، والعلم، وقد ارتفع القرآن بالعقل وقدره حق التقدير وجعله ميزة الإنسان»[1].

إن هذه النقلة التصورية التي تحض على التفكر والتدبر وطلب العلم هي التي فعلت

١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، ص١٥٦.

(١) السايح، أحمد عبد الرحمن «فلسفة الحضارة الإسلامية»، ص١٥٩-١٦٠.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

فعلها في حياة الإنسان المسلم، «لقد أعطى الوحي تلك الدفعة الحيوية بصورة غير مسبوقة في التاريخ فكان أمرا طبيعيا أن تتحرك الفطرة لطلب العلم حين سرت الشحنة الضخمة في جسم ذلك التجمع الإسلامي الجديد، فحركت كل جزئية فيه، ولكن الإسلام لم يحو تلك الشحنة الدافعة فحسب التي يمكن أن تؤدي من ذات نفسها إلى إيقاظ الجوانب الغافلة أو الضامرة من الفطرة فتعطيها دفعتها السوية وحركتها السوية، إنما حوى إلى جانب ذلك توجيهات محددة لطلب العلم كشأنه مع كل أمر لازم للحياة البشرية»[1]، وما الطلب المتكرر للعلم والمعرفة في رسالة الوحي إلا دليل على ما أودعه الله عز وجل في هذا الإنسان من ملكات القدرة على العلم والتعلم، «فالتعرف على الكون المادي وعلى خواص المادة هي من الأمور التي أودع الله فطرة الإنسان الطاقات اللازمة لها، تؤهله بأن يصل الإنسان بها إلى المعرفة الصحيحة بجهد عقلي وعضلي يبذله، لذلك لم يكن شأن الوحي فيه أن يعطي نظريات علمية ولا دروسا توصل إلى معلومات معينة في شتى العلوم، إنما شأنه التوجيه وإعطاء المنهج الصحيح»[2]، لذلك فلا يحق لأحد أن يعتقد أن الوحي ما جاء إلا لكي يؤكد في موقفه من العمل الحضاري على الجوانب الروحية فحسب، «وإنما نحن إزاء تصور شامل يضع الجماعة البشرية المؤمنة في قلب العالم والطبيعة، ويدفعها إلى أن تبذل جهدها من أجل التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة، وفي صميم العلاقات المادية بين الجزئيات والذرات (...) إننا إزاء حركة حضارية شاملة تربط بين مسألة الإيمان ومسألة الإبداع والكشف، بين التلقي عن الله والتوغل قدما في مسالك الطبيعة ومنحنياتها وغوامضها(...) بين تحقيق مستوى روحي عال للإنسان على الأرض، وبين تسخير طاقات العالم لتحقيق الدرجة

(١) محمد قطب «واقعنا المعاصر»، ص٨١.
(٢) نفسه، ص٨٢.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

نفسها من التقدم على المستوى المادي»[1]، وهنا يظهر لنا أنه لا وجود لشيء اسمه الفصل بين الدين والمعرفة في التصور الإسلامي، فكلاهما نزعتان أصيلتان في كينونة البشر، «فالعلم والدين كلاهما نزعة فطرية في كيان الإنسان، والنزعتان في الفطرة السليمة أصليتان ومتكاملتان، ومتعاونتان في الوجود الصحيح للإنسان، فتوجه الفطرة لخالقها بالعبادة فطرة، والرغبة في المعرفة والرغبة في التفاعل مع الكون المادي، واستخدام ثمار المعرفة في تيسير الحياة وتحسينها وتجميلها فطرة كذلك، فالإنسان مفطور على حب المتاع وعلى السعي إلى تحسين وسائل المتاع حتى ترتفع من الضروريات إلى الحاجيات فالتحسينيات»[2].

إن ما استفادته المعرفة من الوحي هو إخراجها من جانبها التجريدي الصوري إلى الجانب العملي، وأبرز مثال لذلك ما كانت تعيشه العلوم عند الإغريق حيث اتسمت بطابعها الفلسفي النظري التجريدي، فجاء الإسلام فوجه المعرفة باعتماد الجانب العملي، والجانب النافع من العلم لا إلى الجانب النظري التجريدي، وعليه يمكن القول أن الوحي أحاط الجانب المعرفي بمنهج بحث يسترشد به من أجل خدمة الإنسان، وهذا المنهج هو الذي أهل البحث العلمي للآفاق الواسعة التي وصلت إليها الحضارة الإسلامية، إن المسلمين هم الذين أسسوا المنهج التجريبي في البحث العلمي، وهذه الحقيقة يقر بها الذين أخذوا هذا المنهج عن المسلمين فقفزوا به قفزات واسعة في العصر الحديث، يقول بريفولت في كتابه (بناء الإنسانية): «إن ما يدين به علمنا لعلم العرب ليس فيما قدموه إلينا من كشوف مدهشة لنظريات مبتكرة، بل يدين هذا العلم إلى الثقافة العربية بأكثر من هذا، إنه يدين لها بوجوده نفسه، فالعالم القديم كما رأينا لم يكن للعلم فيه

(١) خليل، عماد الدين «حول تشكيل عقل المسلم»، ص٧٧-٧٨.
(٢) محمد قطب «واقعنا المعاصر»، ٨٧-٨٨.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

وجود(...)، وقد نظم اليونان المذاهب، وعمموا الأحكام ووضعوا النظريات، ولكن أساليب البحث في دأب وأناة، وجمع المعلومات الإيجابية وتركيزها، والمناهج التفصيلية للعلم، والملاحظة الدقيقة المستمرة، والبحث التجريبي، كل ذلك كان غريبا تماما عن المزاج اليوناني، ولم يقارب البحث العلمي نشأته في العالم القديم إلا في الإسكندرية في عهدها الهليني، أما ما ندعوه العلم، فقد ظهر في أوربا نتيجة لروح من البحث جديدة، ولطرق من الاستقصاء مستحدثة لطرق التجربة، والملاحظة، والمقاييس، ولتطور الرياضيات إلى صورة لم يعرفها اليونان، وهذه الروح وتلك المناهج العلمية أدخلها العرب إلى العالم الأوربي»[1].

وإذا كان المنهج الرباني قد نقل المعارف الإنسانية بنقلها من الواقع التجريدي إلى الواقع العملي التطبيقي، وذلك بمراعاة الإنسان في»حقيقته الشاملة باعتباره كلا مترابط الاجزاء متناسق النشاط، يعمل بجميع نزعاته ومجالات نشاطه في اتجاه موحد، لا تصطدم فيه نزعة بنزعة، ولا يتعارض مجال للنشاط مع مجال آخر، لأنها كلها متجهة إلى عبادة الله بالمعنى الشامل الواسع، الذي يشمل الخلافة في الأرض، وتعمير الأرض بمقتضى المنهج الرباني، ويشمل كذلك رفع الإنسان إلى مكانه اللائق به ودوره المنوط به، وهو حمل (الأمانة) التي أشفقت حملها السماوات والأرض والجبال، وحملها الإنسان»[2]، فإن المنهج الرباني كذلك كان هو الضامن لحماية العلم والمعرفة كي لا تكون وسيلة للشر والإفساد في التصور الإسلامي، وهنا تظهر لنا الأزمة التي تعرفها العلوم والمعارف، وهي غياب المنهج، فتصبح منفلتة من أي ضوابط أخلاقية، مما ينعكس على الإنسان

(١) إقبال، محمد «تجديد التفكير الديني في الإسلام»ترجمة عباس محمود، دار الهداية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٥٥-١٥٦.
(٢) محمد قطب «واقعنا المعاصر»، ص٧٩-٨٠.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

بالإفساد بدلا من الدور المنوط بها في الإصلاح.

إن استكمال الجانب المعنوي من الحضارة القائم على القيم العليا والمبادئ السامية وهو الجانب الأصيل في الحضارة، كان الدافع الأساسي للجانب المادي والتنظيمي من الحضارة والذي تشترك فيه الإنسانية بمعارفها وعلومها، ولذلك نجد المسلمين لم تكن عندهم عقدة في الاستفادة من كل المعارف التي تفوق فيها غيرهم، فكما تتلمذ المسلمون على الإغريق لبدء الحركة العلمية، فقد تتلمذوا على فارس وبيزنطة لبدء الجانب المادي والتنظيمي من الحضارة، وهذا التعامل مع الجانب العلمي والمعرفي يمكن استلهامه من السيرة النبوية، وذلك في غزوة الخندق فالنبي ﷺ أمر بحفر الخندق وهي من الخطط العسكرية للفرس بمشورة سلمان الفارسي الذي أشار على النبي ﷺ بهذه الخطة، «ويعتبر هذا الصحابي الجليل من أوائل من مثل احتكاك العرب بحضارة الفرس في عهد الإسلام»[1]، وهذه الخطة العسكرية هي من أولى الإشارات النبوية في الاستعانة بالتجارب والخبرات الأجنبية التي يستعين بها المسلمون، والتي لا تتناقض مع التصور الإسلامي الشامل، ونجد أن الخلافة الراشدة استلهمت هذا المنهج فنجد عمر ابن الخطاب رضي الله عنه ينشئ الدواوين وهي من الأعمال التنظيمية للفرس (ديوان كلمة فارسية)، وذلك عندما أحست الدولة الإسلامية الحاجة لذلك، فأخذته كما أخذت غيره بعد ذلك، إلا أن هذا الاقتباس عن الآخر لم يعني أبدا سكون المجتمع وركونه لكل ما هو وافد عليه، بل أصبحت بوادر الإبداع تتبدى في المجتمع الحديث، «ورويدا رويدا اكتسب المجتمع الجديد حاسته الخاصة فاستغنى عن الاقتباس، وكان له مشاركته الخاصة والهائلة في هذا المجال، وفي غيره من المجالات، فأخذ الأجيال الأولى

(١) سفر، محمود محمد «الحضارة تحد»، الكتاب العربي السعودي (٢٤)، تهامة للنشر، المملكة العربية السعودية، ط 1، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٩٨.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

من هذه الأمة عن الإغريق والرومان والفرس ما لزمهم سواء في المجال العلمي أو المجال المادي والتنظيمي، لم يمنعهم من الاجتهاد فصارت لهم حاستهم الخاصة التي استغنوا بها عن النقل، ثم أصبحوا فيما بعد أساتذة في جميع تلك الميادين، وصارت أوربا تتلمذ عليهم في جميع الميادين»[1].

إن الجانب الأصيل من الحضارة الذي ما لبث أن تقوى بعد استكمال مقومات النشوء كان دافعا قويا للحضارة الإسلامية، فراحت تنفذ معطياتها في جل الحلقات الحضارية المادية والفكرية والمعرفية مستعيرة مفرداتها وخبراتها من حضارات متنوعة يونانية وفارسية وبيزنطية وهندية وهلينية، ومن ثقافات محلية نبطية وسريانية وقبطية وغيرها، لكنها لم تقف عند حدود النقل الشيء الذي يكدس ولا يبني، بل صاغت هذه المعارف والعلوم بما ينسجم والثوابت والمعطيات التي رسمها وأكدها الوحي، فالنقل عن الآخر لم يلغي أصالة الحضارة الإسلامية، لأن الجانب الأصيل في الحضارة هو معيار قبول أو رفض المعارف الوافدة، «إن الأصالة أمر له أهميته البالغة في وقت النقل عن الغير بصفة خاصة، فالأصالة لا تمنع الاستفادة من ثمار العلم وثمار الحضارة المادية، التي هي في النهاية جهد بشري مشترك تتداوله الأمم وتتداوله الأجيال، ولكنها تمنع الذوبان وفقدان الشخصية بتآثير النقل»[2]، فالعقل المسلم «لم يكن يرفض معطيات غيره، ولكنه في الوقت نفسه لم يكن يتقبلها بالكلية، لقد كان يملك في تركيبه الخاص، ومن خلال منظوره العقدي، المقاييس والموازين العادلة التي يمرر من خلالها تلك المعطيات، فيعرف جيدا ما يأخذ، ويعرف جيدا ما يدع، إنه كان يمارس عملية بناء الذات الحضارية، مستفيدا إلى أقصى حد من خبرات الآخرين، كل الحضارات البشرية، سواء انبثقت عن

(١) محمد قطب «واقعنا المعاصر»، ص٩٧.
(٢) نفسه، ص٩٨.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

رؤية دينية، أم موقف وضعي، صاغها المؤمنون أم صنعها الكفار، كانت تجد في حضارة الإسلام صدرا رحبا»[1]، لكن العقل المسلم كان يأخذ ويرفض وينتقي ويمحص، فوضع التراث العلمي والمعرفي الإنساني موضع الاختبار والتجريب، فعزل ما يريد من معارف واستبعد ما لا يفيد، وفصل بين الصالح والطالح.

إن الدور الذي قام به الفكر الإسلامي»لم يكن مجرد اقتباس، ولكنه هضم وتمثل، وتطعيم مرسوم، هدفه الخروج على الإنسانية بألف نوع من الفاكهة والثمار، مختلفة الأشكال والطعوم ولكنها تسقى بماء واحد، إن هذا الموقف الحضاري المتبصر، المرن، الموزون، حقق مردوده الإيجابي الفعال ليس على مستوى الحضارة الإسلامية فحسب، ولكن عبر نطاق الحضارات جميعا، العناصر الطيبة الصالحة في هذه الحضارات بعبارة أدق، وهو خلال هذا كله إنما كان يؤدي وظيفة لم تؤدها من قبل حضارة أخرى بهذه السعة والعمق: حماية التراث الحضاري البشري، وتمكينه من البقاء في مواجهة تحديات السقوط والنسيان والفناء»[2].

إن هذا التصور العام الذي اكتسبه الفكر الإسلامي من الوحي في تعاطيه مع العلوم والمعارف الإنسانية هو الذي ساهم في بروز حضارة إسلامية عالمية، تربط بين طرفي المعرفة الأصلية منها والمكتسبة، وهذا هو التصور الذي تبناه مجموعة من العلماء في تقسيم العلوم والمعارف إلى علوم أصيلة وعلوم وافدة، «فمن يستقرئ واقع المعارف لدى الأمم والمجتمعات يجد أنها تنقسم قسمين: قسم يختص بكل مجتمع بحد ذاته، يعبر عن هويته ووجهة نظره في الحياة، وقد يختص ببعض الجماعات الدينية أو المذهبية أو ربما ببعض الأفراد، وقسم آخر لا يختص بأمة دون أخرى ولا بمجتمع دون آخر ولا

(١) خليل، عماد الدين «حول تشكيل العقل المسلم» ،ص ٨١-٨٢.
(٢) نفسه، ص٨٢-٨٣.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

بجماعة أو فرد، وإنما هو ذو سمة عالمية، بحيث يمكن أن تتداوله كل الأمم والشعوب والجماعات دون أن يكون له أي تأثير حتمي على وجهة نظرها في الحياة أو طريقة عيشها أو هويتها الحضارية»[1].

فأما عن القسم الأول، «فإننا نجد أن المجتمعات تتمايز فيما بينها بمجموعة من المعارف، فيختص كل واحد منها بثقافة تكون له سمة دون غيره، فلكل مجتمع عقائده ووجهة نظره عن الحياة، ولكل مجتمع مفاهيمه ومقاييسه وقناعاته ومثله العليا وأهدافه الكبرى، وقيمه الخاصة، وهذه العناصر تتألف فيما بينها لتشكل بنيانا ثقافيا متمايزا، تملأ جوانبه مجموعة من المعارف التي تكيفت وتشكلت وفق طرازه»[2].»وأما القسم المعرفي الثاني، فإننا نجده علوما تتسم بالمعرفة البحتة الخالصة من أي انتماء، فهي حيادية يمكن لأي مجتمع أخذها والانتفاع بها أو بقسط منها ما وجد في نفسه حاجة إليها، صحيح أن هذه العلوم تنشأ في أرض مجتمع من المجتمعات، وصحيح أن بعض العلوم تحظى باهتمام لدى بعض الشعوب أكثر مما تحظى به لدى أخرى، إلا أنها لا ترتبط بالهوية الخاصة والشخصية المتميزة لتلك الشعوب، فهي عالمية السمة وليست محلية، فعلوم الطب مثلا والفيزياء والكيمياء والرياضيات والهندسة والفلك وما شاكلها، لا تنتسب إلى أمة دون أخرى ولا تتمايز -في طبيعة دراستها- بين المجتمعات تبعا لإختلاف أنماطها وطرائق عيشها، وإن تفوق مجتمع على آخر في دراستها واستخدامها وتطويرها»[3].

وقد أدرك المسلمون في عصور نهضتهم ذلك الفارق المهم بين صنفي المعرفة، «وكان ثمرة هذا التفريق أن انضبطوا إلى حد كبير في عملية الاقتباس المعرفي من الأمم الأخرى،

(١) «، د.ط، ج١، ص٧٤. القصص، أحمد «نشوء الحضارة الإسلامية
(٢) نفسه، ج١، ص٧٤
(٣) نفسه، ج١، ص٧٤

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

بحيث كانوا يميزون بين المعارف الخاصة بهم -والتي جعلتهم أمة من دون الناس، فطلبوها من مظانها الأصيلة-وبين الفروع ذات الطابع العالمي من المعرفة، والتي هي خالية من أي هوية خاصة، فأخذوها من غيرهم وأسهموا فيها بقدر ما كانوا بحاجة إليها، وبقدر ما حققت لهم من أهداف تنسجم مع شخصيتهم الحضارية(١).

إننا نجد «عبد الرحمن بن خلدون» يوضح هذا الجانب عند حديثه عن تقسيم العلوم حيث يقول:»اعلم أن العلوم التي يخوض فيها البشر ويتداولونها في الأمصار تحصيلا وتعليما هي على صنفين: صنف طبيعي للإنسان يهتدي إليه بفكره، وصنف نقلي يأخذه عمن وضعه، والأول هي العلوم الحِكْمية الفلسفية»(٢)، وهي التي يمكن أن يقف عليها الإنسان بطبيعة فكره ويهتدي بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها وأنحاء براهينها ووجوه تعليمها، حتى يقف نظره وبحثه على الصواب من الخطأ فيها، من حيث هو إنسان ذو فكر، والثاني هي العلوم النقلية الوضعية، وهي كلها مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعي، ولا مجال فيها للعقل إلا في إلحاق الفروع من مسائلها بالأصول، وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله، وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيؤها للإفادة، ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن، وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة، لأن المكلف يجب عليه أن يعرف أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالإجماع أو بالإلحاق»(٣).

ثم يعدد فروع العلوم النقلية، فيذكر علم التفسير وعلم القراءات وعلوم الحديث والفقه وأصوله والعقائد الإيمانية، وما تبعها من علم الكلام وعلوم اللغة والنحو والبيان

(١) أحمد القصص «نشوء الحضارة الإسلامية»، ج ١، ص٧٦

(٢) الفلسفيّة في هذا الموضع هي جميع فروع المعرفة العقليّة غير الدينيّة، بما فيها العلوم الطبيعيّة.

(٣) ابن خلدون، عبد الرحمن «مقدمة ابن خلدون» تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا،

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

والآداب، ثم يقول: «وهذه العلوم النقلية كلها مختصة بالملة الإسلامية وأهلها»[1].

وبعد أن يعقد فصولا للكلام على كل واحد من هذه العلوم النقلية، ينتقل إلى التفصيل في أصناف العلوم العقلية، فيقول: «وأما العلوم العقلية التي هي طبيعة للإنسان من حيث إنه ذو فكر، فهي غير مختصة بملة، بل بوجه النظر فيها إلى أهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمران الخليقة، وتسمى هذه العلوم: علوم الفلسفة والحكمة»[2].

ثمّ يعدد فروع تلك العلوم العقلية، فيقول : «وهي سبعة :المنطق -وهو المتقدم منها- وبعده التعاليم، فالأرثماطيقي أولا، ثم الهندسة ثم الهيئة ثم الموسيقى ثم الطبيعيات ثم الإلهيات. لكل واحد منها فروع تتفرع عنه. فمن فروع الطبيعيات الطب، ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات، ومن فروع الهيئة الأزياح -وهي قوانين لحساب حركات الكواكب وتعديلها للوقوف على مواضعها متى قصد ذلك-، ومن فروعها النظر في النجوم على الأحكام النجومية»[3].

ولا يكتفي «ابن خلدون» بتعداد العلوم العقلية وحسب، وإنما يتكلم عن كل واحد منها على وجه الخصوص ليميز ما هو مقبول حسب وجهة النظر الإسلامية مما هو مرفوض لتعارضه مع الإسلام ومفاهيمه، فيعقد فصلا «في إبطال الفلسفة وفساد منتحلها»[4]، فيتكلم فيه عن فساد آراء الفلاسفة في الإلهيات، وخطأ منهجها وتعارضها

بيروت ، طبعة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٤٠٦.

(١) نفسه، ص٤٠٦.

(٢) نفسه، ص٤٦٢.

(٣) نفسه، ص٤٦٣.

(٤) إبن خلدون»مقدمة ابن خلدون»، ص٥١٣.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

مع العقيدة الإسلامية ومفاهيمها، ثم يعقد فصلا، «في إبطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها»[١]، ويضع فصلا بعد ذلك، «في إنكار ثمرة الكيمياء واستحالة وجودها وما ينشأ من المفاسد عن انتحالها»[٢]، إلا أن الرأي الذي توجه إليه الفكر الإسلامي من إبطال بعض العلوم لا يعني إنكارها بالكلية، وإنما إنكار توجهاتها المعارضة لمقاصد الوحي، مما يطرح إعادة صياغتها بالمنظور الذي يمكن للمسلمين أن يستفيدوا منها، فنجد أن الحضارة الإسلامية استطاعت فك الارتباط بين عدد من العلوم كالفلك والكيمياء، وبين جنوحها الخاطئ باتجاه الخرافة والتنجيم والسحر واللا معقول، وتحويلها إلى منهج علمي يستهدف الإفادة الفعلية الممكنة من كشوفها في مقاصد الشريعة وتيسيرات الحياة، وما براعة علماء الإسلام في هذين النوعين من العلوم إلا دليل على أن ذم العمل بهذه العلوم، ليس في ذاتها وإنما في مقاصدها وغاياتها، ويتضح ذلك من قول ابن خلدون عند حديثه عن التنجيم حيث يقول: «فهذه الصناعة -أي التنجيم- يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها، من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجتمعة، فتكون لذلك أوضاع الأفلاك والكواكب دالة على ما سيحدث من نوع من أنواع الكائنات الكلية والشخصية»[٣]، ومن نفس المنطلق يرفض ابن خلدون الكيمياء، لا بمفهومها التجريبي المختبري الذي عرفته بمرور الوقت، والذي تفوق فيه المسلمون زمنا طويلا على غيرهم، ولكن بمفهومها السحري القديم القائم على الأوهام، والذي كان يطمح إلى تحويل المعادن الخسة إلى أخرى نفيسة، «فلم ينقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر

(١) نفسه، ص٥١٨.
(٢) نفسه، ص٥٢٢.
(٣) نفسه، ص٥١٨.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

عليها ولا على طريقها، ومازال ممتحنوها يخبطون فيها خبط عشواء ولا يظفرون إلا بالحكايات الكاذبة، ولو صح ذلك لأحد منهم لحفظه عنه أولاده أو تلاميذه وأصحابه، وتنوقل في الأصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده إلى أن ينتشر ويبلغ إلينا أو إلى غيرنا، ولهذا كان كلام الحكماء كلهم فيها ألغازا»[1].

إن هذه النصوص من مقدمة «ابن خلدون» تشير إلى مدى انضباط المسلمين في تلقي المعرفة والتمييز بين ما هو من معارف البشر قاطبة، وما هو من معارف الأمة الإسلامية خاصة، أي بين العلوم الطبيعية وملحقاتها وبين»ثقافة المجتمع الإسلامي»، ما مكن الفكر الإسلامي القديم من الاستفادة العلمية من مختلف المعارف، إما أخذا بها بالكلية أو تعديلا لتوجهاتها بما يتناسب مع التصور الإسلامي.

إن البعد الحضاري للأخلاق المستمد من الوحي في الحضارة الإسلامية هو الجانب الذي افردت به الحضارة الإسلامية على جميع الحضارات، سواء القديمة منها كالحضارة الفرعونية أو اليونانية أو الفارسية أو غيرها، أو الحديثة كالحضارة الغربية، وإنفراد الحضارة الإسلامية يجعلها تحمل مقومات النهوض الحضاري في أي وقت وحين، عكس الحضارات الأخرى التي يعبر سقوطها عن سقوط حضارات مادية لا ترتكز على أرضية تصورية مستمدة من الوحي للنهوض وإعادة البناء، لأنها تعتمد الجانب التصوري العقلي القاصر عن إدراك حقيقة الجانب الروحي في الإنسان.

خاتمة

إن حاجة الحضارة الإنسانية والعلوم الاسلامية لحضور البعد القيمي الأخلاقي في

(١) ابن خلدون «مقدمة ابن خلدون»، ص٥٢٦-٥٢٧.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

مناهجها ليست وليدة فترة تاريخية، أو حاجة ظرفية، وإنما هي ضرورة منهجية اقتضاها موقع القيم الأخلاقية في الشريعة الاسلامية، فالبعد الأخلاقي هو الذي يحمي الحضارة الإنسانية من أي تطرف عقلي أو غلو مادي، كما أنها صمام الأمان في تعزيز الجانب العملي في العلوم كلها بربطها بواقع تنزيلها، وبمقاصد الشارع الحكيم منها، وغياب توجيه الأخلاق للعلوم هو سبب جنوحها عن مقصدها وعدم تحقق فائدتها.

عند حديثي عن الأبعاد الحضارية لمفهوم الأخلاق في النموذج المعرفي الإسلامي فإنني لم أقصره على الجانب المادي وحده، وإنما قصدت به الجانب الأخلاقي الروحي، لأنه هو الركن الأساس الذي تخلد به الحضارات وتؤدي به رسالتها من إسعاد الإنسانية، وإبعادها عن المخاوف والآلام، ولقد سبقت حضارتنا كل الحضارات السابقة واللاحقة في ذلك.

وبذلك يمكن القول إن العنصر المادي ليس هو أساس التفاضل دائما بين الحضارات، لذلك عندما يتحدث مجموعة من المفكرين عن مظاهر ازدهار الحضارة الإسلامية ويقصرونه على المظاهر المادية، فإنهم يهملون جانبا مهما وأساسيا من مظاهر ازدهار حضارتنا، وهو الأصل والأساس الذي أوصل الحضارة الإسلامية إلى التطور المادي، فالإشعاع المادي للحضارة الإسلامية، ما هو إلى الانعكاس الخارجي لإشعاع أعمق وأشمل، إنه الإشعاع الروحي الأخلاقي، هذا الإشعاع الذي لا يمكن لأي مفكر غربي إنكاره لأنه منتوج خالص للحضارة الإسلامية تنفرد به وحدها دون سائر الحضارات، بينما الجانب المادي يمكن أن نجد من يقول بأنه منتوج تشترك فيه الحضارات، فكل حضارة لاحقة تطور التراث الإنساني المادي فيصبح اللاحق أفضل من السابق.

إن أصحاب النزعة «التاريخية» في تفسير نشوء الحضارة الإسلامية من المنظور المادي يقيمون اعتبارا أساسيا للتمازج الحضاري والثقافي بين العرب وغيرهم من الأمم

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

والشعوب المجاورة والخاضعة للدولة الإسلامية، ويعتبرونه السبب الأساسي لما وصلت إليه الحضارة الإسلامية، جاهلين أو متجاهلين الجانب الأخلاقي الروحي للحضارة الإسلامية، والذي امتازت به على غيرها من الحضارات، إن مثل هؤلاء المفكرين، يعطون أهمية كبرى لمدى التطور العلمي والتقني وللمستوى العمراني والمادي ولمظاهر الترف والزخرفة التي اتسم بها المجتمع، للحكم على مدى ارتقائه وتقدمه، فعندما ينعم المجتمع الإسلامي بمستوى عال من المدنية والمظاهر المادية، عندها فقط يحكمون عليه بالارتقاء والنهوض والتقدم.

والحقيقة أن هذه النظرة من هؤلاء المؤرخين تعبّر عن الجانب الذي يستولي على اهتمامهم عند البحث في تاريخ المجتمع الإسلامي، فالذي يسترعي انتباههم بشكل أساسي هو المستوى المدني والتقني والعمراني للحضارة، ومما لا شك أن النهضة الحضارية تسهم في إعلاء صرحه، إلا أنه ليس وحده دليلا على الرقي الحضاري في أي مرحلة من المراحل، بل قد يكون في بعض الأحيان مؤذنا بانحطاط سياسي وتفكك مجتمعي واندثار حضاري، كما كان شأن الحضارات في التاريخ.

إن الرؤية الشمولية للحضارة الإسلامية في مرحلة ازدهارها هي التي تعبر عن حقيقتها، لذلك وجب علينا إيلاء أهمية بالغة لعنصرين مهمين في الحضارة هما العنصر الأخلاقي الروحي، والعنصر المادي العمراني، وبإبراز الإشعاع الحضاري في هذين الجانبين نحقق التكامل بين الجانب الروحي والمادي للإنسان في الحضارة الإسلامية.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

لائحة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص.

١. ابن خلدون، عبد الرحمن «مقدمة ابن خلدون» تحقيق درويش الجويدي، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، طبعة ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٢. أحمد القصص «نشوء الحضارة الإسلامية»، (د ط).

٣. إقبال، محمد «تجديد التفكير الديني في الإسلام»ترجمة عباس محمود، دار الهداية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٤. ألبرت أشفيتسر»فلسفة الحضارة»، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، مراجعة: زكي نجب محمود، المؤسسة المصرية العامة، ط١، ١٩٦٣م.

٥. البخاري، محمد بن اسماعيل أبو عبد الله الجعفري»صحيح البخاري»، تحقيق:مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ط ٣، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

٦. خليل، عماد الدين «حول تشكيل عقل المسلم»المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي ط٤، ١٤١٢هـ/١٩٩١م

٧. السايح، أحمد عبد الرحمن «فلسفة الحضارة الإسلامية»، الناشر وزارة الأوقاف المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، مصر، (د.ط)، القاهرة ١٤١٠هـ/١٩٨٩م.

٨. سفر، محمود محمد «الحضارة تحد»، الكتاب العربي السعودي (٢٤)، تهامة للنشر، المملكة العربية السعودية، ط ١، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

٩. سفر، محمود محمد «ثقب في جدار التخلف»دار الصافي للنشر والثقافة، المملكة العربية السعودية، ط١، ١٤١٠ه-١٩٨٩م.

١٠. السيوطي، جلال الدين جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر»الفتح الكبير في

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ضم الزيادة إلى الجامع الصغير»، تحقيق يوسف النبهاني، دار الفكر بيروت، لبنان، ط ١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م

١١. صدقي، عبد الحميد «تفسير التاريخ» ترجمة الدكتور كاظم الجوادي، دار القلم، الكويت، ط١، ١٤٠٠ه-١٩٨٠م.

١٢. طه عبد الرحمن «سؤال الأخلاق مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية»، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٠م.

١٣. طه عبد الرحمن»روح الحداثة المدخل إلى تأسيس الحداثة الإسلامية»، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٦م.

١٤. الطيب برغوث «منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية»، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي(١٧)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٦ه-١٩٩٦م.

١٥. عبد المجيد النجار، عبد المجيد «دور الإصلاح العقدي في النهضة الإسلامية»، مجلة إسلامية المعرفة، العدد الأول.

١٦. «معالم المنهج الحضاري في الإسلام» ثقافتنا للدراسات والبحوث، العدد الخامس والعشرون، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م.

١٧. عبد الوهاب المسيري «دراسات معرفية في الحداثة الغربية»، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م.

١٨. العلواني، طه جابر، من تصدير كتاب منهج النبي ﷺ في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية للطيب برغوث، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي(١٧)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط١، ١٤١٦ه-١٩٩٦م.

١٩. عمارة، محمد «في فقه الحضارة الإسلامية»، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، ط

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1

ISSN p.p:2708-3993 / ISSN o.l: 2708-4000
Vol.2.Special.1/ (2020-2021)

٢، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م، ص١٠٧.

٢٠. قطب، محمد «واقعنا المعاصر» دار الشروق، القاهرة، ط١، ١٤١٨ه-١٩٩٧م.

٢١. مالك بن نبي، «شروط النهضة»ترجمة عبد الصابور شاهين، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية، طبعة ١٤٠٦ه-١٩٨٦م.

٢٢. مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري»الجامع الصحيح المسمى صحيح مسلم»، دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، د.ط.

٢٣. مصطفى أمقدوف «الأخلاقية أفقا للتغيير نحو بناء إنسانية جديدة بحث في فلسفة طه عبد الرحمن»، عقول الثقافة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١، ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م.

Doi:10.37940/RJIS.2021.2.Speci.1.1